دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

أسباب "سيبة" قبيلة بني مسارة على المخزن المغربي
في منطقة وزان أواخر القرن التاسع عشر الميلادي

د. إبراهيم بل العافية
دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد المالك السعدي - المملكة المغربية

مُلَخّص

عرفت قبيلة بني مسارة عبر تاريخها الطويل في المغرب كقوة ذات تأثير كبير في محيطها القبلي بمنطقة وزان وبلاد جبالة شمال المغرب. حيث كانت في حالة "سيبة" وتمرد دائم لسلطة المخزن وطغيان على جيرانها من القبائل مما جعلها تحتل مكانة مرموقة بين قبائل السيبة في منطقة وزان. وحتى الأجانب خاصةً الفرنسيين الذين درسوا أوضاع القبيلة خلال القرن التاسع عشر صنفوها على رأس قبائل "السيبة" بمنطقة وزان، بسبب شيوع حمل السلاح والقوة الحربية الطاغية على الجيران، ونتيجة لتعاقب قواد مستبدين طائشين على المجتمع القبلي ومؤسساته، وهذا ما أدى إلى تفسخ العلاقات الاجتماعية، وضعف سلطة الدولة بالقبيلة وانعدام الأمن بالنسبة للتجار والغرباء داخل ترابها أو في المناطق المجاورة لها، حيث انتشار الفوضى والاضطرابات. يضاف إلى ذلك المرحلة التاريخية الحرجة التي أدت إلى إضعاف الدولة المغربية، بتزايد الضغوط الأوربية عليها وتأثيراتها السلبية بفقدانها لهيبتها واستنزاف لماليتها، وهذا ما أثر سلبًا على أوضاع القبائل والمجتمع وفي علاقتها مع سلطة الدولة، حيث التمرد الدوري على المخزن الذي لم تكن تتجاوز سلطته في بعض الأحيان الجانب الروحي، أما زمنيًا فكانت تمارس ظرفيًا فقط عندما تكون سلطة المخزن قوية عبر الحركات التي كانت تؤدب وتغرم، لكن بمجرد مغادرتها تعود القبيلة إلى ممارساتها السابقة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ أكتوبر ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

بني مسارة؛ "السيبة"؛ المخزن؛ جبالة؛ وزان

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2024.255513

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إبراهيم بل العافية. "أسباب "سيبة" قبيلة بني مسارة على المخزن المغربي في منطقة وزان أواخر القرن التاسع عشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١٨٩ – ٢٠٣.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: ibrahimbelafia9@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

إن سيبة قبيلة بني مسارة في المغرب خلال أواخر القرن التاسع عشر تمثل فترة زمنية حرجة في تاريخ منطقة وزان، حيث شهدت القبيلة تحولات وتغيرات جوهرية أثرت في العلاقة بينها وبين السلطة المركزية. في هذا السياق، يستحق تحليل العناصر الرئيسة التي أسهمت في تفاقم الفوضى والتمرد داخل قبيلة بني مسارة الدراسة لفهم كيف أثرت هذه الأحداث على علاقة القبلية مع الدولة المغربية؟ ويتطلب فهم هذه الفترة التاريخية الهامة فحص السياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي عاشته منطقة وزان في هذه الحقبة. ويعد التأثير الأوروبي والتحديات التي واجهت الدولة المغربية نتيجة للضغوط الخارجية جزءًا من الخلفية التي ساهمت في إشعال نار الفوضى داخل قبائل المغرب، بما في ذلك قبيلة بني مسارة. وسيكون الفحص الدقيق للأحداث التي أدت إلى سيبة بني مسارة، وكيف تفاعلت معها الدولة المغربية، جوهريًا لفهم الديناميات والعوامل التي أدت إلى هذا الانقلاب في العلاقات الاجتماعية والسياسية. وسيقوم هذا العرض بدور هام في إلقاء الضوء على تأثيرات هذه الفترة على مستقبل منطقة وزان، وتطورات العلاقة بين القبائل والسلطة المركزية في المغرب.

أولًا: تعريف السيبة والسياق التاريخي لاندلاع "سيبة" قبيلة بني مسارة أواخر القرن التاسع عشر

١/١-تعريف السيبة

لغويًا: تعود كلمة السيبة إلى جذر سَيَّبَ كما جاء في لسان العرب لابن منظور، وسَيَّبَ الشيءَ: تركَه. وسَيَّبَ الدَّابَّةَ، أَو الناقةَ، أَو الشيءَ: تركَه يَسِيبُ حيث شاءَ. وكلُّ دابَّة تركْتَها وسَوْمَها، فهي سائبةٌ. والسائبةُ: العَبْدُ يُعْتَقُ على أَن لا وَلاءَ له[١]، في مقابل ذلك نجد عند جبران مسعود في قاموسه الرائد، كلمة السائب وتعني: المهمل الذي لا حفاظ عليه ولا رعاية" مال أو رزق سائب". السائبة: ج سَيَّبَ وسَوائب، السَّائب[٢]. أما أحمد مختار عمر في معجم اللغة العربية، فصرف فعل سَيَّبَ إلى يَسِيبُ، تَسْيِيبًا، فهو مسيب، والمفعول مسيَب. سَيَّبَه: تركه، أطلقه، خلاه يذهب حيث شاء" فتح الولد القفص وسَيَّبَ الطائر"[٣]. يتضح من خلال ما سبق بأن كلمة السيبة تعود إلى [مفرد]: تسيب وتعني إهمال وانعدام الضوابط، وضعف الالتزام بالقوانين، فوضى واضطراب. وكلمة السيبة متجذرة في الثقافة المغربية، يقول المثل المغربي" المال السايب يعلم السرقة" أي المال غير المراقب لا يحاسب المسؤول عنه. وفي مثل مغربي آخر: "سايب مع راسو" أي لا يتحكم فيه أحد، وهناك مثل يتعلق بالتسيير الإداري للدولة "التسيب الإداري يؤدي إلى الفوضى"، أي إلى الإهمال والتهاون والاضطراب.

اصطلاحًا: تطلق كلمة السيبة على البلاد أو القبائل التي لا تخضع لسلطة المخزن والخارجة عن نفوذ وطوع السلطان، ولا توجد فيها أجهزة الدولة، لأنها تتمرد على سلطة وطغيان رجال السلطة من قواد وباشوات، وتمتنع قبائل بلاد "السيبة" عن دفع الضرائب والكلف، وكانت تدير شؤونها الداخلية بنفسها دون الرجوع إلى سلطة السلطان، عكس بلاد "المخزن" التي كانت خاضعة لسلطة السلطان ومراقبة موظفيه وأعوانه، والسيبة لا تعني دائما الفوضى والثورة على السلطان كما يدعي الأجانب[٤]، بل هي حسب بعض الباحثين المغاربة من أساليب الاحتجاج ضد التعسف الجبائي أو تعسف ممثلي المخزن، والدليل أن هذه القبائل كانت تعترف بسيادة السلطان ويستعين بها هذا الأخير عند الحاجة[٥].

حظي مفهوم السيبة باهتمام كبير لدى الأجانب، أمثال شارل دوفوكو ـ روبرت مونطاني ـ ميشو بلير... وقد اعتمد هؤلاء في دراستهم للمغرب على تقسيمه إلى قسمين: بلاد "المخزن" وبلاد "السبية". في بلاد "السيبة" كانت القبائل تقاوم سلطة المخزن الذي يريد فرض نفوذه عليها، لكنها كانت تحاول بما أوتيت من قوة الانفلات من سلطته، أما بلاد "المخزن" فهي المناطق التي تمارس فيها سلطة المخزن كاملة، إلا أن ما يعاب على هذا التفسير، هو أن واقع حضور المخزن في قبائل بلاد "السيبة" كما سنرى في حالة بني مسارة نموذجًا، لم تكن بتلك البساطة، فالمخزن لم يكن غائبا على الدوام، بل إن جهازه التحكيمي والعقابي كانا موغلين فيها، إلا أنه كان

خاضعا للظروف التي تعيشها البلاد عموما، إضافة إلى طبيعة الموقع الجغرافي المنيع تضاريسيا، أو البعيد في الأطراف عن مركز الحكم[٦].

ففيما يخص الظروف العامة التي كانت تعيشها بلاد المغرب، فإن "سيبة" بني مسارة كنموذج، كانت تستفحل في الفترات الانتقالية بعد وفاة سلطان وتعيين سلطان آخر بدله، وكانت تزداد ضراوة مع اشتداد ضغوط الأوربيين وتزايد دسائسهم[٧]، فبعد وفاة المولى إسماعيل واندلاع أزمة الثلاثين سنة (١٧٢٧ ـ ١٧٥٧م) تمردت بني مسارة وانشغلت بإثارة الفوضى في منطقة وزان[٨]، وفي عهد المولى عبد الرحمان بن هشام استغلت بني مسارة هزيمة المخزن أمام الفرنسيين في معركة ايسلي ١٨٤٤ وانشغال السلطان بالضغوط الأوربية[٩]، وأعلنت التمرد على المخزن وطرد ممثليه، كما شرعت في مهاجمة جيرانها ونشر الاضطرابات في المنطقة، بعد حرب تطوان ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠م، ساندت قبيلة بني مسارة ثورة الروكي السوفياني سنة ١٨٦٢م في حد كورت بمنطقة الغرب[١٠]، لكن أمر بني مسارة سيستفحل أكثر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبالضبط بعد سنة ١٨٧٣م، التي تتوافق مع وفاة السلطان محمد الرابع وتولية السلطان الحسن الأول، حيث استغلت القبيلة هذه الفترة الانتقالية وأعلنت تمردا على المخزن دام سبع سنوات، ومن مظاهره طرد ممثلي المخزن من القبيلة والامتناع عن أداء الضرائب.

وبخصوص الموقع الجغرافي، فرغم قرب تراب بني مسارة من مركز الحكم في العاصمة فاس، إلا أن الطابع التضاريسي الجبلي الوعر والمنيع لترابها كان يوفر لها الحماية، حيث كانت تعتصم بالجبال كلما داهمتها القوات المخزنية التي كان يصعب عليها اقتحام هذه المناطق، وهو ما كان يجعلها في مأمن من عقاب الجنود الذين عادة ما كانت تلحق بهم الهزائم، وبذلك كانت القبيلة تتفلت من رقابة المخزن.

وقد تطور مفهوم "السيبة" من معناه المكاني المباشر ليطلق مجازا على أي تمرد ضد السلطة المركزية، أي أن اللفظ أصبح مرادفا للتمرد على السلطة[١١]، وهو ما كانت تفعله بني مسارة عندما كانت تحس بضعف سلطة المخزن فتتمرد عليه، وهذا بالضبط ما وقع عند تولية السلطان الحسن الأول ١٨٧٣م التي توافقت مع طرد القبيلة لقائدها المستبد بن محمد القيسي كما سنبينه لاحقا، حيث أضحت تعيش في ثورة شبه دائمة على المخزن. وللإشارة، فقد صعب علينا تحديد بدايات ونهايات التمردات الذي قامت بها قبيلة بني مسارة خلال النصف الثاني من القرن التاسع ومطلع القرن العشرين، لعدة اعتبارات من أهمها:

ـ لم تتحدث معظم المصادر سواء المغربية أو الأجنبية بدقة عن تواريخ التمردات التي قامت بها بني مسارة، وإنما كانت تتطرق إلى مظاهرها بشكل عام، دون أن تكلف نفسها التطرق لبداية أو نهاية أي تمرد، لأن هجومات القبيلة على جيرانها كانت شبه يومية ولم تكن تنقطع أبدا. يقول موليراس في هذا الشأن:"... ولا تمر سنة دون أن يقوم قسم من بني مسارة بنهب وزان"[١٢]، وجاء في مؤلف البعثة العلمية الفرنسية:" وتعتبر القبيلة (بني مستارة) الأكثر نهبا ونشاطا من كل جبالة، يقومون بسرقة جيرانهم بدون انقطاع"[١٣].

ـ لم تكن بني مسارة تأبه في ممارساتها السائبة بمنطقة وزان لسلطات المخزن سواء كان حضوره موجودا وقويا أو غائبا، لأن القبيلة لم تكن تخشى سلطات المخزن، يقول موليراس أيضًا:"... فإن بني مسارة لا يخشون السلطة المركزية، وغالبا ما كبدوا العساكر الشريفة هزائم مخزية"[١٤]، وهذا بلا شك هو الذي جعل المصادر تتحدث عن هذه الأحداث بشكل عام دون الدخول في التفاصيل، ولولا وجود بعض الرسائل المخزنية التي بحوزتنا وتظهر غضبه ومطالبته القبيلة بالعودة إلى الجادة، وإنهاء طغيانها لاستحال علينا تحديد بداية أي تمرد أو نهايته، ولكي نستجلي هذا الأمر بدقة سنعتمد على عنصرين بارزين للفصل بين تمرد وآخر كعملية منهجية فقط لنبين درجة "سيبة" بني مسارة وطغيانها على المخزن وعلى جيرانها في منطقة وزان والمناطق المجاورة لها:

العنصر الأول: طرد الحضور المخزني من القبيلة في شخص قواده الذين كانت بني مسارة تثور عليهم، فتقتلهم أو تطردهم، وبذلك كانت تحكم نفسها بنفسها.

العنصر الثاني: الحملات المخزنية التي كان يقودها السلطان، أو قادته العسكريون لقمع القبيلة وإعادتها للجادة والطاعة.

اعتمادًا على هذين العنصرين، يمكن القول أن ثورة بني مستارة على المخزن أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حدثت أربع مرات، وبسبب تشابه ممارسات القبيلة خلال هذه التمردات التي كان يتم خلالها: الهجوم على مدينة وزان، وقطع الطرق على المارة والقوافل، وطرد القواد المخزنيين وقتلهم، الصراع مع القبائل المجاورة، والهجوم على منطقتي الغرب واللوكوس... نعتقد بأن العوامل المسببة لها كانت واحدة، ولكي نستجلي الأمر بدقة لابد أن نتطرق للسياق التاريخي العام الذي اندرجت فيه هذه التمردات.

٢/١-السياق التاريخي لـ"سيبة" قبيلة بني مسارة أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

حافظت الدولة المغربية على استقلالها وقوتها لمدة طويلة، إلا أنها لم تستطع الصمود في وجه الضغوط الأوربية خلال القرن التاسع عشر، والتي أدت إلى تداعي أركانها وتقويض دعائمها، وإسقاطها في الهوان والضعف، ومن مظاهر الضغوط الأوربية:

الضغوط العسكرية

تمثلت هذه الضغوط في هزائم عسكرية نكراء، مثل هزيمة إيسلي سنة ١٨٤٤م أمام فرنسا وهزيمة تطوان في عامي ١٨٥٩- ١٨٦٠م أمام إسبانيا. وما خلفتهما من عواقب وخيمة على حاضر المغرب آنذاك ومستقبله، باشتداد التنافس الأوربي حوله[١٥]، وفي اقتطاع أجزاء ترابية مهمة من التراب الوطني ومنحها للجزائر الفرنسية. كما استطاعت إسبانيا أن توسع مساحة الثغرين المحتلين سبتة ومليلية، والأدهى من ذلك هو كشف النقاب عن الضعف الكبير للجيش المغربي الذي فتح بضعفه المجال أمام التدخلات العسكرية الأوربية. وقد لخص الناصري هذه العواقب في حديثه عن نتائج حرب تطوان بالقول:" ووقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها، وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله"[١٦].

الضغوط الديبلوماسية والتجارية

تحت ضغوط الأحداث والهزائم العسكرية، اضطر المخزن إلى توقيع معاهدات خطيرة مع الدول الأوروبية، من بين هذه المعاهدات كانت المعاهدة المغربية البريطانية في ٩ ديسمبر ١٢٧٣هـ /١٨٥٦م[١٧]. وبعد حرب تطوان في سنة ١٨٦٠م، قامت إسبانيا بتوقيع اتفاقية تجارية مع المغرب في عام ١٨٦١م، وتمكنت فرنسا أيضًا من توقيع اتفاقية مع المغرب في ١٠ غشت ١٨٦٣م. هذه المعاهدات وضعت الأسس القانونية للحماية القنصلية ونظام التسلط على المغرب[١٨]. نتج عنها فقدانه السيطرة على التجارة الخارجية وتقلصت صلاحيات السلطان الجمركية.

انتشار الحمايات القنصلية

انتشرت في هذه الفترة، انتشرت الحمايات القنصلية بشكل كبير، حيث سمح للتجار الأوربيين بحماية المغاربة الذين كانوا يتعاملون معهم. كانت هذه الحمايات تعفي المحميين من الضرائب ومن القضاء الشرعي المغربي، وقد نجمت عن الحمايات القنصلية عواقب وخيمة على بنيات المجتمع المغربي، خاصة وأن الأوروبيين أصبحوا "مزودين بالآلة الاستعمارية المعقدة من قناصل وبعثات وجواسيس وشركات وحقوق حماية الأشخاص وغيرها"[١٩]، زد على ذلك فرض غرامة مالية باهضة بعد هزيمة تطوان بقيمة ٢٠ مليون دورو، مما أدى إلى إفراغ الخزينة وتأزيم الأوضاع المالية للدولة وسقوطها في براثن القروض الأجنبية.

لقد تسببت الضغوط الأوربية في اضطرابات خطيرة، حيث فقدت الدولة المغربية هيبتها، وبدأت التدخلات الأجنبية في شؤونها وتضعيفها سواء على المستوى المركزي أو الإقليمي. وفرضت على المخزن القيام بمجموعة من الإصلاحات لبناء دولة عصرية قوية قادرة على مواجهة الأطماع الأوربية، شملت مختلف المجالات الاقتصادية والإدارية والعسكرية، وكان أهمها إصلاحات الحسن الأول (١٨٧٣ – ١٨٩٤م) التي كان لها وقع كبير وصدى واسع، من خلالها استطاع تثبيت دعائم حكمه ودولته، كما عرف عن هذا السلطان أيضًا أن عرشه كان على ظهر جواده[٢٠]، لتأديب القبائل وفرض طاعتها لمخزنه، ومما يؤشر بوضوح على الأحوال

التي أصبحت عليها البلاد، من انتشار للفتن وللاضطرابات المحلية[٢١]، بما في ذلك الاضطرابات التي سببتها قبيلة بني مسارة في منطقة وزان، الأمر الذي دفعه إلى التحرك بنفسه للقيام بإخمادها، إضافة إلى استخلاص الجبايات وحل النزاعات...[٢٢]

ثانيًا: أسباب "سيبة" بني مسارة أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

١/٢-التفوق الحربي لبني مسارة مقارنة مع قبائل الناحية

عرضت الضغوط الأوربية المخزن المغربي لهزات عنيفة، وأضعفت سلطته الداخلية على الناس، كما أسهمت في تقويض الوضع المالي للدولة، حيث أصبحت بحاجة ماسة للأموال لتغطية الغرامات الأجنبية وتمويل الإصلاحات التي دشنها السلاطين. كما ساهم انتشار الحمايات القنصلية في تفكيك لحمة المجتمع ـ بما كانوا يتمتعون به من إعفاءات ـ قضائية ـ وفي انتشار الفوضى واللاقانون بين الناس، وزاد الطين بلة عجز المخزن عن ردعهم[٢٣].

وقد لعب ذلك دورًا في إضعاف سلطة الدولة على القبائل، حيث كانت تتسبب في وقوع اصطدامات وأعمال عنف وفوضى بينها، فظهرت الخطوب وانتشرت الفتن، مما شجع المفسدين من سكانها على إطلاق أيديهم في أموال الناس وأملاكهم، وعلى نشر الفتن والفوضى داخل المجتمع، خاصة في القبائل التي كانت تغتنمها فرصة قصد الهجوم على بعضها البعض، وخلق الفوضى والاضطرابات، ومن بينها منطقة وزان التي انتشرت بها الحمايات القنصلية، خاصة في أوساط الشرفاء والموالين لهم. في رسالة موجهة من السلطان الحسن الأول إلى محمد الطريس، طلب منه دعوة السفير الفرنسي للتدخل لدى محمييهم بوزان للكف عن إذاية الناس والالتزام بالقانون: "وعليه فنأمرك أن تعرف الباشدور بذلك وتحضه على الوفاء به والوقوف عبر الفصال المذكور، والعمل بمقتضاه بإلزام الوزاني تنحية التواتي، وإيقاف أولاده عند حدهم والضرب على أيدي الصعاليك المنحاشين إليهم وتفريق جمعهم. وإن نفذ فذاك، وإلا فكلمه بأن يأمر الموقرين بالخروج من وسط أولئك الصعاليك لنأمر بالنزول على وزان وإجراء الأحكام عليهم لينزجر بهم غيرهم، فإن السكوت عليهم لا يسع لتأديته إلا اتساع خرق الفساد ولكون تلك البلاد مجاورة لقبائل الفساد كبني مستارة وأضرابهم"[٢٤].

كان هذا حال قبائل منطقة وزان، خاصة قبيلة بني مسارة، التي فجأة وجدت معالم البلاد قد تبدلت، وسلطة المخزن قد ضعفت، وهيبة الشرفاء الوزانيين قد تراجعت. لقد لمست تراجعًا كبيرًا في سلطة المخزن وحملاته القمعية، وحتى سمعة الشرفاء الوزانيين وأدوار الوساطة التي كانوا يقومون بها، لأن سلطة الشريف نفسه ضعفت وبدأ يبحث عن الحماية لنفسه، ومنها طلب الحماية القنصلية[٢٥]. لم تعد بني مسارة تجد من يقف في وجهها ويصد عدوانها على الآخرين، فتشجعت وأقدمت على شن الغارات على القبائل والسطو على مدينة وزان. يقول الحسن الأول في رسالة إلى محمد بركاش معقبا ومشخصا بدقة الحالة التي كانت عليها المنطقة وعلى دور المشاكل المشتعلة بين الشرفاء الوزانيين في ذلك ومساهمتهم في اختلال أمن المنطقة وانتشار الفوضى فيها، الأمر الذي كانت تستغله القبائل المجاورة، ومن أهمها قبيلة بني مسارة:" فإن السيد محمد ولد الحاج عبد السلام الوزاني ظهر منه بإشارة والده شق العصا والطيش والخوض والخرق على المخزن بهدم القوانين السياسية والتعادي على العوام والإفتيات بالترك على ذوي المراتب والظلم والجور، ونبذ القواعد ورفض الأحكام وراء ظهره، وكشف الحياء عن وجهه غير مكترث ولا مبال بقائم وقاعد... هذا يؤدي قطعًا إلى انتشاب فتنة عظيمة بينه وبين ابن عمه مقدم الزاوية ينشأ عنها لا محالة ازدياد فساد قبائل جبالة المجاورين لوزان، كبني مستارة وغيرهم ويسري فساد فسادهم ولابد للقبائل المجاورين لهم والمتصلين بهم هكذا وهكذا وهلم جرا إلى ما لا غاية له فيوشك أن يجر ذلك إلى اختلال نظام القبائل وانحلال ترتيب الإيالات فيتسع الخرق"[٢٦].

تميزت بني مسارة في منطقة وزان بقوتها الحربية وببطشها وبطغيانها على مدينة وزان، وعلى جيرانها من القبائل، حيث كانت سيدة المجال الجبلي بامتياز، وتميزت علاقتها بالسلطة المركزية بالعتو والعصيان

والتمرد، كان أخطرها تمرد أواخر القرن التاسع عشر. لقد طبعت حياة القبيلة خلال هذه المرحلة بالفوضى والتوتر والاقتتال، حيث كانت في حالة حرب دائمة سواء على المستوى المركزي أو المحلي. كانت العلاقة بين القبيلة والمخزن متميزة بالتوتر والعصيان من قبل القبيلة، وبالقمع والعقاب من طرف المخزن الذي جرد ضدها حملات متعددة لقمعها، أهمها حملة السلطان الحسن الأول سنة ١٨٨٩م، وحملة عبد السلام الأمراني قائد المولى عبد العزيز سنة ١٩٠٢م.

لقد سابت قبيلة بني مسارة على جيرانها القبليين وشرفاء وزان، حيث مارست النهب والقتل... جاء في مؤلف البعثة العلمية الفرنسية المسيو ميشو بلير: "وتعتبر القبيلة الأكثر نهبا ونشاطا من كل جبالة، يقومون بسرقة جيرانهم بدون انقطاع، وأحيانا يأتون لنهبهم وخطف الأطفال والفتيات ويصلون حتى داخل وزان، ويبيعون كذلك من جهة إلى أخرى الأطفال الذين يخطفونهم... وفي سنة ١٨٨٩م اضطر جيش السلطان للإقامة من ٢ إلى ٢٤ غشت بمخيم مازيرارت (خولان أعلى القبيلة) لجعل قبيلتا بني مستارة وبني أحمد يخضعان له ويدفعان مؤخر ضرائب طويل، ولم يتم ذلك إلا بعد مساومات طويلة، وبعد أن استنفذا مع السلطان نفسه كل وسائل التسويف أو التماطل"[٢٧].

وقد نجح الفرنسيون في وصف حالة القبيلة بدقة متناهية ضاهت في ذلك المصادر المغربية التي أكدت نفس المعطيات، ولكن بشكل عام دون الدخول في التفاصيل. من بين هذه المصادر، عبد الرحمان بن زيدان في كتابه "إتحاف أعلام الناس" حيث قام بالتعليق على رحلة الحسن الأول إلى الشمال قائلاً: "ووجه حركة أخرى ـ الحسن الأول ـ لقبيلة مستارة لتسكين الروعة التي قامت بها والضرب على أيدي الناهبين وقطاع الطريق على المارة لوزان، ولا يعظمون حرم مولاي عبد الله"[٢٨]، وهذا الكلام مطابق تماما لما جاء في رحلة العربي المشرفي الذي رافق الرحلة المخزنية الخامسة عشرة إلى شمال المغرب في صيف ١٨٨٩ حيث قال عنهم: "ينهبون الركبان ويأكلون أموال الناس بالباطل ويسدون السبل على المار لمدينة وزان والخارج منها... يهتكون الحريم ولا يعظمون حرم مولاي عبد الله الشريف" [٢٩].

كما تأرجحت أوصاف القبيلة في المصادر الفرنسية بين المدح أحيانًا والذم في أحايين كثيرة، فقد وصف رئيس البعثة العلمية الفرنسية بالمغرب السوسيولوجي الفرنسي إدوارد ميشو بلير قبيلة بني مسارة في دراسته عن "مدن وقبائل المغرب:" بكونها من أكثر القبائل شجاعة وقوة مقارنة مع القبائل الجبلية الأخرى أناسها لا يقهرون"[٣٠]، وفي دراسة أخرى بـ" القبيلة المرعبة الخطيرة، أهلها أكثر الناس عنفًا وشراسة ووحشية وقسوة وعتوا، مشهورون بشجاعتهم القوية، ولهم صيت ذائع في الشدة والبأس، لا يقهرون ولا يغلبون"[٣١]، وبالوصف نفسه ذكرهم موليراس حينما تكلم عن هجمات المساريين على مدينة وزان قائلاً: "إن الشخص المساري هو سيد المدينة، يتجول فيها بسلاحه، ويتكلم بصوت عال، يروع ساكنتها دون تمييز بين الشريف والعامي واليهودي يسبي الفتيان والفتيات، ويذهب بهم إلى قبيلته كي يبيعهم أو يسخرهم لخدمة أغراضه، فلا تمر سنة دون أن تقدم فرقة من بني مستارة لنهب وزان، فكم من مرة نهبت هذه المدينة المقدسة وأحرقت من قبل الجيران المساريين الخطيرين، فلا جدوى من محاولة المدينة مقاومتهم، فدائمًا ما كانت تبوء بالفشل"[٣٢].

بذلك صنفت بني مسارة من لدن الأجانب ضمن قبائل "السيبة" اعتمادًا على مجموعة من المظاهر، منها شيوع حمل السلاح، وتفوق القوة الحربية مقارنة مع قبائل المنطقة، التي سابت عليها وسامتها أشد العذاب. وهذا ما دفع السلاطين إلى زيارتها وتجريد حركات عسكرية ضدها. يمكن إجمال عوامل تمرد قبيلة بني مسارة و"سيبتها" على المخزن إلى ثلاث اعتبارات أساسية، إلى جانب العوامل الأخرى التي ذكرناها سابقًا.

٢/٢-الأوضاع الاقتصادية المتأزمة والمحدودة

تشير المصادر المتوفرة والوقائع إلى أن المساريين قد كونوا مجتمعا قرويا جمعوا فيه بين الزراعة التي عانت من ظروف مناخية مضطربة، والمغروسات، بالإضافة إلى النشاط الرعوي. يتطلب هذا النشاط التداخل والصراع مع الجيران حول المراعي ومنابع المياه، والذي شكل إلى

جانب عوامل أخرى، الدافع الرئيسي وراء التطاحن القبلي وانتشار عمليات الغزو بين الجيران والصراع بين قبائل منطقة وزان[٣٣].

نؤكد بداية على أن الظروف الطبيعية الصعبة، لم تكن تمكن السكان من تحقيق الفائض في الإنتاج دائما[٣٤]، ذلك أن سيادة الأراضي الجبلية، وفقر التربة، وقوة الانجراف، والجريان السريع في فصل الشتاء، ونزوات المناخ، كلها عوامل ساهمت في إعاقة الزراعة في مجتمع تقليدي كانت تقنياته بسيطة، مع ما يرافق ذلك من جفاف وقحوط في بعض السنوات، كانت تؤدي إلى توقف الدورة الاقتصادية بسبب انخفاض مستوى المحاصيل، مع ما يوازي ذلك من ارتفاع للأسعار وفتك ونفوق للماشي... وكان يوقع الناس في ضيق شديد، ويؤدي إلى انتشار المجاعات والأوبئة.

وإذا استثنينا الأثرياء الذين كان في مقدورهم الحفاظ على وسائل الإنتاج من حيوانات وبذور، والاستفادة منها عندما تلوح في الأفق بشائر أمطار هامة، تعطي الانطلاقة لعملية الحرث والبذار، فإن الآخرين كانوا يعجزون عن حرث أراضيهم، والاكتفاء على الأقل بحرث جزء منها[٣٥]، ويقع أحيانًا، وحتى إن كانت الوسائل متوفرة، وبسبب طول مدة تهاطل الأمطار، يتأخر موسم الحرث عن موعده، فينتج عنه ضعف في المحاصيل، ويجعل السنة جدباء رغم أنها سنة مطيرة[٣٦]، تزيد من هموم الناس ومعاناتهم مع الجوع والأمراض، وهذا ما لخصه البيت الزجلي التالي:

جَات الشّتا وجَات لَريَاح وجَات هُمُوم كَثِيرَة
أحَيَّانَا عليك يَا المَسَّارِي وفِين عشَاك اللَّيلَة[٣٧].

لقد ترافقت فترة "سيبة" بني مسارة أواخر القرن التاسع عشر مع سنوات عديدة طبعها الجفاف ونقص الإنتاج، حيث كانت سنوات جفاف متعاقبة وشديدة، نتجت عنها مجاعات مهلكة فتكت بالناس[٣٨]، من أهمها مجاعة ١٨٩٠ ـ ١٨٩٤ التي مست القبيلة بشكل كبير[٣٩]. كل هذه العوامل كانت تدفع بأفراد القبيلة إلى البحث عن حلول لتجاوز هذه الآفات، ومن أهمها الإغارة على المناطق الغنية في الغرب واللوكوس لتعويض قلة الإنتاج الزراعي[٤٠].

٣/٢-الضغط الضريبي الشديد

ترافق تمرد بني مسارة في أواخر القرن التاسع عشر مع الأوضاع الأمنية الخطيرة التي شهدها المغرب آنذاك. من بين تلك الأوضاع كان استفحال النهب والقتل والفوضى بين القبائل، ومنها قبيلة بني مسارة وجيرانها من القبائل ومدينة وزان. لقد عاش المغرب صعوبات كبيرة في شتى الميادين، خاصة في الميدان المالي بسبب انعكاسات المعاهدة المغربية البريطانية سنة ١٨٥٦م، التي حرمت المخزن من حرية التشريع الجمركي، وفرضت إسبانيا على المغرب غرامة مالية باهضة، إثر انهزامه في حرب تطوان ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠م والتي أفرغت خزينة الدولة.

لقد اضطر المغرب إلى إفراغ بيت المال، بل أجبر المخزن على الاقتراض من الخارج[٤١]، وكان من بين الإجراءات التي اتخذها السلاطين لإنعاش بيت المال، أن أعاد ترتيب المكوس على الأبواب، كما زاد في الضريبة الفلاحية التي كان يتكفل القواد بجبايتها في القبائل. ومع ذلك، كان قواد القبيلة يشتطون في استخلاصها، ويرهقون الرعية بالمغارم الثقيلة، حيث كان جزء من هذه الأموال ينتهي في جيوبهم بدلا من خزينة الدولة، في الوقت الذي كانت فيه البلاد تعاني من أزمة خانقة ناتجة عن التدخل الأجنبي والجفاف، وهو ما كان يوغر الصدور ويذكي نار التمرد[٤٢]، الشيء الذي كان يدفع القبائل إلى القيام باحتجاجات مسلحة ضد قوادها، وهذا ما يؤكده عبد الرحمان بن زيدان بقوله: "إلى أن الكثير من المستفاد كان يدخل بصناديق الخدام ولم يدخل بيت المال"[٤٣]. في سياق هذا الشطط ظهرت تمردات عديدة بالمغرب، أبرزها تمرد الغرب بقيادة الروكي، وقبيلة الرحامنة بالحوز، وبني مسارة بجبالة ووزان[٤٤].

يتضح إذن أن تمرد قبيلة بني مسارة و"سيبتها" كان يندرج ضمن سياق الاحتجاجات المسلحة كرد فعل ضد تسلط وفساد دواليب السلطة، وتحكم القواد وأبنائهم وأعوانهم في أموال القبيلة وأرزاق الناس. وقد بلغ ضغط القواد مداه واتخذ أحجاما وأشكالا متعددة، فعجز الناس عن أداء الضرائب، حيث كانت المبالغ المترتبة عنها والكلف المرتبطة بها من المبالغة ما يعجز الفلاح على أدائها، ولم يكن السبب في ارتفاع المبالغ الواجب

تسديدها فحسب، وإنما كان يتضمن أيضًا المبالغ الإضافية التي كان يفرضها القواد على الفلاحين. يقول البكاري تعليقا على حكم محمد القيسي ببني مسارة: "وبعد عودته إلى الحكم تحسنت سيرته شيئا ما، إلا أن أبناءه وخاصة محمد الملقب بالركوب، اغتصب الكثير من الأراضي من أربابها بجبالة ولوطة، فاستولى على أراضي زراعية خصبة بكل الطرق، ودعا الرجال للاشتغال فيها بالحراثة المجانية، ودعا النساء يصيفن وينقين، ويظللن شبه جائعات، وكان باقي الأبناء يتعدون على الرجال والنساء بالضرب والاغتصاب"[٤٥]. وهكذا عاش هؤلاء عيشة ممتازة هم وأعوانهم، نتيجة ما كانوا يلزمون به الناس بأداء مبالغ كبيرة ينفقونها في احتياجاتهم الخاصة، وفي بناء القصور والبذخ والترف... ويضيف البكاري في نفس السياق: "وقد جعل في هذا القصر خزائن وبساتين، وجلب له المياه العذبة، فعاش فيه عيشة الملوك المترفين، حياة البذخ، فاتسع له العمران، وأضحى يعيش أحسن مما يعيش أهل المدن في قصورهم"[٤٦]. لقد عاش القواد وأعوانهم حياة مترفة ومنعمة، بالمقابل ترك الناس عرضة للموت وللتعسفات وللظروف الطبيعية القاسية وللمجاعات، وهذا ما يوضحه البيت الزجلي في الطقطوقة الجبلية:

الدُّنيَا يَا الْغَدَّارَة وَلِي عليهَا يَفنىَ
القَايِد يَاكُل بِيبِي وَنَا نَاكُل يَرنِي[٤٧].

كما قال البكاري أيضًا:" وقد عرفت المنطقة أثناء حكمه ـ محمد القيسي ـ كل ألوان الظلم والاستبداد واستغلال النفوذ والأعمال الشاقة التي عمت كل أرجاء القبيلة، ولم ينج منها حتى الأطفال والنساء والعجزة"[٤٨]. ومما زاد الطين بلة أنه لما كان يتم رفع التظلم إلى المخزن المركزي للمطالبة بخفض الضرائب أو إلغائه، وعزل المسؤولين الفاسدين كانت الأبواب توصد في وجوههم، لأن السلطان وأمام حاجته الماسة إلى الأموال لم يكن يسمح بهذا الأمر، خوف أن يصبح ذلك عادة للتهرب من أدائها، ولهذا كان رده المبدئي هو الرفض[٤٩].

لقد كانت القبيلة تقدم في بعض الأحيان طلبات للإعفاء من الضرائب كما سلف الذكر على يد عامل المخزن نفسه، الذي غالبا ما يكون على علم تام بأوضاع القبيلة المعيشية، فيضطر بعضهم إلى التعاطف معها ويأبى جمع ضرائبها، وهذا ما قام به القائد الحمرني كما رأينا سابقا، والذي لقي حتفه قتلاً على يد عامل العرائش بوسلهام بن علي أزطوط أيام السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، لأنه رفض تسلم ضرائب القبيلة وتسليمها إلى المخزن، فقبيلته في حالة عوز شديد لا تستطيع أداءها.

في عهد السلطان الحسن الأول وبسبب الجفاف ونقص الإنتاج، أرسلت القبيلة مبعوثًا إلى فاس ليلتقي بأمين مالية السلطان الحسن الأول، السيد الحاج عبد السلام البقالي الحسني الإدريسي الريحاني المساري المعروف ببوقطيبة[٥٠]، ليتوسط لهم لدى السلطان حتى يعفيهم من ضرائب تلك السنة، لأن الوقت صعب والإنتاج ضعيف، يقول البكاري في هذا الشأن: "في أوائل القرن ١٣هـ اجتمع زعماء القبيلة ووجهاؤها وتذاكروا حول دفع الزكوات والعشر والضرائب التي كانوا يدفعونها لوكيل المالية ببني مستارة، وأرادوا أن يطلبوا من نقيب الشرفاء أن يمد لهم يد المساعدة لدى السلطان الحسن الأول في أن يخفف عنهم من ذلك أو يعفو نظرا لقلة المطر وقلة الزرع وهلاك الماشية، فاتفقوا أن يرسلوا السيد محمد الحاج الدلحي إلى السيد عبد السلام والي السلطان الحسن الأول ليطلب منه التخفيف وليبلغ له رسالة القبيلة"[٥١]، لكن الخوف منع الوزير من إبلاغ الطلب إلى السلطان، فرجع مبعوث القبيلة السيد محمد الحاج الدالحي خاوي الوفاض، خائبًا ساخطًا مصمما على التمرد والانتقام، فانتفضت القبيلة، وانتقمت من الوزير بإحراق وتهديم داره وقصره بدوار الريحان في السفح الجنوبي لجبل ايسوال بقبيلة بني مسارة[٥٢].

كما أن فرض الضريبة كان يفقد القائد الكثير من سلطته، عندما كان يحاول تحصيلها عن طريق التعسف وعدم المساواة بين الدواوير والفرق، والتعرض للسكان والتضييق عليهم. وقد حاول بعض القواد فرض الضرائب ولو بالقوة إذا استلزم الأمر، لكن بدون نتيجة تذكر، حيث كانت القبيلة بعد استنفاذ الشكاية إلى

المخزن تضطر إلى تنحيته بالقوة، ففي سنة ١٨٧٣، كان القائد محمد بن محمد القيسي يواصل سياسته الاستبدادية ضد الناس، ويرغمهم بالقوة على جمع الزكوات والضرائب، فاحتج سكان القبيلة على ذلك، وكان من المفروض أن يحترموا قراره ويقبلوا بسلطته باعتباره ممثلا للمخزن الشريف، لكنهم كانوا يبخلون عليه بذلك، ويتجرؤون عليه، لأنه كان يستولي على معظم ما أنتجوه، فحاصروه وأحرقوا داره، وأجبروه على الفرار سرًا من القبيلة[٥٣].

تفيد مختلف المصادر، أنه لم يحاول أحد من القواد الذين خلفوا القائد محمد القيسي فرض الضرائب وممارسة التسلط بمثل ما مارسها، ولو أنهم وجدوا أنفسهم في نفس الوضعية من العسر وقلة ذات اليد، وتنفيذ الواجب في جمع الضرائب وتحصيلها للمخزن. كان معظم القواد منشغلين بمسألة تأمين سلامتهم، وإذا كانت لديهم سلطة فرض الضرائب وتحصيل الأعشار، فلم تكن لديهم وسائل للمطالبة بها، ولا حتى الحصول على مدخول يضمن معيشتهم الخاصة، لأنهم لم يكونوا يتوفرون على ما يكفي من المخازنية ورجال السلطة لدعم سلطتهم، ولهذا اتبعوا أساليب أخرى من أهمها توظيف الجواسيس، والاحتماء بعصبيتهم الاجتماعية داخل القبيلة[٥٤].

وهكذا كان للضغط الضريبي والاقتطاع التعسفي لخيرات الناس والتضييق عليهم بدون وجه حق، دور آخر فاقم الأمور ودفع الناس إلى التمرد. وبسبب ذلك بات رفض أداء الضرائب أمرا مألوفا لدى بني مسارة سواء للقواد المحليين أو للسلطة المركزية، وهذا ما سجله المخبرون الفرنسيون الذين فسروا تمرداتها بكون القبائل ساخطة على الطرق الهمجية التي يستعملها السلطان لجمع الضرائب[٥٥]، كما أن حملة السلطان الحسن الأول سنة ١٨٨٩م على بني مسارة كان من أهدافها، إجبارها على أداء مؤخر ضرائب طويل مدته سبع سنوات[٥٦].

٤/٢-ضعف السلطة المحلية وتدني الأوضاع الأمنية

كانت الأوضاع الأمنية بقبيلة بني مسارة ومنطقة وزان عامة خلال الفترة المدروسة سيئة جدا، وكانت مساهمة بني مسارة في ذلك كبيرة، حيث مارست بقوة اللصوصية والسلب والنهب، تشهد عليها التقارير الفرنسية،" بني مستارة هي القبيلة الأكثر نهبًا ونشاطًا من كل جبالة، طرق منطقتهم مقطوعة دائمًا، بني مستارة يسرقون جيرانهم بدون انقطاع وأحيانًا يأتون حتى لنهبهم، وخطف الأطفال والفتيات ويصلون حتى داخل وزان"[٥٧].

يمكن فهم وتفسير تمرد و"سيبة" قبيلة بني مسارة بالإضافة إلى ما وقفنا عليه سابقًا، من شطط وحيف للقواد في الجبايات، ونهبهم لأرزاق الناس والعباد بغير واجب حق في سياق التمردات الاعتيادية التي كانت تقوم بها القبائل بعد إحساسها بضعف واضطراب السلطة، (سواء المحلية أو المركزية) من أجل تصفية حساب قديم مع جار مشاكس أو إنزال قواد مشتطين، ومعاقبة مسؤولين فاسدين لا يقدرون المسؤولية التي كانت على عاتقهم بالاستماع إلى شكاوى الناس، ومحاولة الاستجابة لها أو جبر خواطرهم على الأقل[٥٨].

كانت المدن القريبة من المناطق المتمردة، هي المستهدف الرئيس لعبث الفساد وشغبهم، فبعد وفاة السلطان الحسن الأول هاجم بنو مسارة مدينة وزان "دار الضمانة " وضريح مؤسسها مولاي عبد الله الشريف، والتي لعب شرفاؤها أدوارًا كبيرة داخل المجتمع الجبلي من مراقبة للقبائل، وممارسة وظيفة التحكيم أثناء نزاعها بفعل توفر شيوخها على الشروط المطلوبة، وهي الشرف والصلاح مصدر السلطة الروحية، إلا أن تنكر شرفاء الزاوية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وابتعادهم عن النهج الذي سار فيه أسلافهم في توطيد الأمن، وفرض السلام بين القبائل، واحتمائهم بالحماية القنصلية، قد قلص من سلطتهم الرمزية المتوارثة، وطغى على علاقاتهم الاجتماعية الجانب المادي[٥٩]، يقول المولى عبد العزيز في هذا الشأن: "فقد كثر التشكي من آل وزان الذين لهم تعلق بجنس الفرنصيص، إنهم يأمرون فساد القبائل لعزائبهم ويصيرون يشتغلون بالخوض وارتكاب الأمور الشنيعة التي توجب انحلال الأحكام على العمال والتشويش عليهم في أمور الرعية"[٦٠]، وهو ما أدى إلى أفول نجم الزاوية الوزانية، وتقلص إشعاعها في عهد شيخها مولاي عبد السلام بلعربي وخلفائه من بعده، والذين أدت

سياستهم إلى خلق مصاعب ومتاعب كبيرة أمام المخزن[٦١].

كما أدت في نفس الوقت إلى الانقسام بين القبائل وإلى التطاحن الجبلي، فطلبهم للحماية الأجنبية ودورهم الكبير في تسهيل مهام الأجانب في المغرب، كانت لها عواقب وخيمة في توتر العلاقة بين القبيلة والشرفاء، الذين بدل الإصلاح والإعانة في استتباب الأمن وتطبيق الشرع باعتبارهم شرفاء ينتسبون إلى الدوحة النبوية الشريفة، انتقلوا إلى الاحتماء بالنصارى وبالأجانب، واشتغلوا بأمور الفساد ونشر الفتن، الأمر الذي ساهم في انحلال الأمور، وعرقلة عمل ممثلي المخزن في ضبط القبائل واستتباب الأمن بها، يقول السلطان الحسن في رسالة إلى وزيره محمد بركاش في هذا الشأن:" وبعد، فإن السيد محمد ولد الحاج عبد السلام الوزاني ظهر منه بإشارة من والده شق العصا والطيش والخوض والخرق على المخزن... وهو ما حمله على الحماية إلا ليظلم ويتطاول ويخيف ويصول ويفسد الأحكام على ابن عمه كبير الزاوية... والمخزن لا يسكت له على ذلك ولا يقره عليه ولا يمكنه منه بحال، لأن المحميين ليس من شأنهم الطغيان والتجبر والجرأة والتلصص... والتجاهر بالفساد والمجون والإفتيات على المخزن والتعرض لأرباب الولايات... بل إنما شأنهم الاستظلال بحاميهم والعيش تحت أكنافهم، والاشتغال بالجد ولزوم القوانين، وأيضًا السكوت على هذا يؤدي قطعا إلى انتشاب فتنة عظيمة بينه وبين ابن عمه مقدم الزاوية، ينشأ عنها لا محالة ازدياد فساد قبائل جبالة المجاورين لوزان كبني مستارة وغيرهم"[٦٢].

إن فساد قبيلة بني مسارة بتعبير المخزن واعتدائها على جيرانها خاصةً الزاوية الوزانية، لم يكن مجرد زيغ ورغبة في نشر الفوضى فقط، بل هو في أحايين عديدة جاء رد فعل على ما كانت تعيشه المنطقة من فوضى وضعف للأطراف المؤثرة كشرفاء وزان، الذين أصبحوا عامل فوضى واضطراب، وبهذا أضحت القبيلة في حل من العقد السابق مع الشريف المؤسس مولاي عبد الله الشريف والشيوخ اللاحقين، وأصبحت ترد على شرفاء الزاوية بما يستحقونه من عقاب[٦٣]، كل ذلك ساعد قبيلة بني مسارة على اختراق مقدسات الزاوية، وعلى إزالة الحواجز التي كانت تشكلها أمام تحركاتها نحو الغرب واللوكوس، وكسرت طموح القبيلة السياسي في فرض القواد المخزنيين المخلوعين من طرف أعيان القبيلة[٦٤].

كان يتحمل المسؤولية الكاملة من هذا الاضطراب أيضًا، كل من المخزن في شخص قواده وممثليه الذين كانوا يرهقون الناس بالضرائب والكلف، ولم يتركوا لهم شيئا حيث ساسوهم بأحكام عرفية استبدادية لا تستند لا على الشرع ولا على أعراف متداولة بين الناس، ومن هؤلاء القائد محمد القيسي القطاري المساري الذي استبد بالحكم في القبيلة، وأطلق يده في أموال الناس وأمتعتهم، وسمح للمفسدين بممارسة كل الشرور، خاصة أبنائه وعشيرته من بني قيس وبني يمل، حيث ادعى انتسابه إليهم[٦٥]، وكان مما فعله تعليم القبيلة الإغارة على جيرانها، والخروج عن الانضباط والجادة، وزاد الطين بلة اغترار القائد ومتابعة الناس له[٦٦]، فلم يعد الناس يأبهون بالأحكام ولا بالوسطاء خاصة شرفاء وزان، حيث لم تعد تشعر القبيلة بوجودهم ولا تعترف بفضلهم، فتقلصت سلطة الدولة على القبيلة، ولم يبق لها من ينازعها في شيء، لذلك كانت تعزل ولاة المخزن، وتعين حكاما من لدنها يسوسون أمورها، ولهذا السبب كان يتحرك المخزن بسرعة ويرسل قائد الغرب كالقائد بن عودة الجزائري ثم القائد أبو بكر الحباسي...[٦٧] لاسترجاع الأمور وإعادتها إلى ما كانت عليه.

لقد كان القائد في حياة المساريين مصدر إزعاج أكثر منه مصدر اطمئنان، فالغالب أن عداوة السكان له، كانت تصل إلى قتله أو طرده، ولم يكن الناس يرغبون في تأمين سلامته[٦٨]، وحتى الأشراف سواء المحليون أو الجهويون، كشرفاء وزان لم يستطيعوا الحيلولة دون مهاجمته أو إرجاعه إلى قيادته بعد طرده[٦٩]، إن هذه القسوة مع القائد تعبر في الواقع عن طبيعة العلاقة السياسية التي كانت موجودة بين بني مسارة والمخزن المركزي في شخص ممثليه، فقد كان السكان يعترفون بالسلطة الشرعية للسلطان، فهو صاحب الكلمة العليا وحامي الملة والدين.. ولهذه الغاية فهو شخص مقدس توجب له الاحترام والتقدير. أما المخزن المحلي ولو أنه يحكم باسم السلطان الذي عينه، ورغم أن أفعاله غير

عادلة ويقوم بالاستبداد والنهب، والبطش... فمسؤولية كل ذلك، كانت تقع على أعوان السلطان الذين استشطوا في استعمال سلطتهم، ومع ذلك كان السكان يقبلون القائد الجديد ممثلا شرعيا للسلطان، ويسمحون له بجمع ضرائبهم وإدارة شؤونهم المحلية، وعندما يبرز عتوه وظلمه لم يكونوا يبادرون إلى قتله والتخلص منه إلا بعد مناشدة السلطان والشكوى إليه، وكانوا يعبرون في مختلف المناسبات عن عدم رضاهم عنه، ويطالبون السلطان باستبداله دون أن يصل الأمر إلى إعلان العصيان والخروج عن طاعة المخزن[٧٠].

في سنة ١٨٤٨م مثلاً، اشتكى المساريون للسلطان من تسلط القائد القيسي، فأرسلت المطالب إلى السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام يلتمسون منه تخليصهم من بطشه وتعسفه، وفي سنة ١٨٨٥م ذهب وفد من بني مسارة إلى فاس يلتمس من السلطان الحسن الأول العفو تلك السنة عن ضرائب القبيلة، لأنها كانت في مسغبة، فلم يحصلوا على طائل وعادوا أكثر غضبا، وكان من نتائجها إحراق منزل بوقطيبة أمين مال الحسن الأول بدوار الريحان[٧١].

هذه هي العوامل التي ينبغي أن نرجع إليها لتفسير سبب فوضى و"سيبة" بني مسارة، وعلى عكس موقف المخزن والأجانب الذين كانوا ينظرون بعين الخطر وعدم الرضى إلى ما كانت تفعله قبيلة بني مسارة من فوضى واضطراب في البلاد. فإن القبيلة لا تتحمل المسؤولية وحدها، فهذه الأعمال الخارجة عن القانون التي فسرت وأولت بوحشية القبيلة وعدم انضباطها للجادة هو في الواقع مجرد رد فعل[٧٢]، على الواقع المرير الذي كان يعيشه المغرب آنذاك، والأمثلة على ذلك عديدة، فعندما كان يشتط ضغط أعوان المخزن من قواد وشيوخ على أملاك الناس، كانت الأنظار تتجه إلى السلطان باعتباره رمز السلطة العليا للبلاد وحامي حمى الملة والعباد، ليبادر بمعاقبة الأعوان المشتطين وإرجاع الحقوق إلى أصحابها، لكن السلطان وأعوانه الكبار عوض أن يعاقبوا الأعوان الفاسدين، كانوا يعاقبون القبائل أو يستبدلون الأعوان المغضوب عليهم بأعوان أكثر فسادا من الأولين[٧٣].

وقد فسرت إحدى الوثائق المحلية التي بين أيدينا، والتي يعود تاريخها إلى سنة ١٩٠٦م أسباب "السيبة" وانعدام الأمن والتعدي على أملاك الناس بالقبيلة، وبما كان يشعر به الناس آنذاك إلى قلة الأحكام المخزنية: "... فطاف السيد محمد بن عبد الكريم المذكور تطويفا شاملا، فظهر له بدليل معرفته وبرهان عقله وميزه، ما فسدوا له في الغرس المذكور اثنا عشر مدا من الزيتون... على وجه الظلم والتعدي و"السيبة" من قلة الأحكام المخزنية"[٧٤].

أمام الضغوط الأوربية والضعف الكبير الذي آلت إليه وضعية البلاد، كان أكثر ما يخيف المخزن ويؤرقه هو حدوث ثورات شعبية وتمردات للقبائل هنا وهناك، ولهذا تخلى السلطان عن تحقيق رغبات رعاياه، وانحاز إلى جانب أعوانه، حيث كان يعمل ما في وسعه لتلافي وقوع التمردات بقمع أي حركة أو مطلب شعبي. على أن الناس كانوا يعتبرون هذا العمل تخليا للسلطان عن واجبه اتجاه رعاياه، وانحيازه ضدهم إلى جانب أعوانه الشرهين[٧٥]، وهذا ما كان يدفع الأمور من سيئ إلى أسوأ، ويدفع الناس إلى الثورة أو الفوضى، فحاجة المخزن للأموال[٧٦] ومغالاة أعوانه في جمعها ونهبها، وإرهاق الناس وأكل أرزاقهم، إضافة إلى فشل دور بعض الأطراف الدينية في ضبط المجتمع وتسكين الروعات، هي السبب الرئيسي في تهييئ أرضية متينة للتوتر واندلاع العصيان من حين لآخر، يقول جرمان عياش في هذا الشأن: "لم تكن الشكاوي من العامل هي السبب الوحيد طبعا الذي يبرر الثورة على القائد، فإهمال السلاطين للشؤون المحلية للقبائل، كان يفاقم الأمر على المخزن، حيث كان السكان يعترفون بما تقدمه السلطة المعنوية وهيبة السلطان وقوته من سند في حل المشاكل المحلية، فشعور القبائل بهيبة السلطان وسرعة حضوره إليها يجعلها دائما في حالة خوف ورعب"[٧٧]، وهذا ما فطن إليه السلطان الحسن الأول، ففي حالة بني مسارة مثلا؛ أرسل إلى القبيلة ثلاث حملات عسكرية تحت قيادة قادته. لكن بعد كل حملة كانت القبيلة تثور، فلم تترك للسلطان إلا التحرك بنفسه، فتقدم إليها الحسن الأول أولا سنة ١٨٨٩م، ثم لاحقًا ابنه عبد العزيز سنة ١٩٠٢م، لكن الوقت كان قد فات، لأن بني مسارة كانت قد ألفت

الفوضى و"السيبة"، ولم تعد تتحمل الانضباط والخضوع، ولهذا فبمجرد انسحاب القوات المخزنية كانت تعود إلى التمرد والعصيان.

كما أن تبادل الرسائل وطلب الشكاوي التي كانت تأتي من القبيلة إلى السلطان مقابل طلب النصح والوعظ والتحكيم، يجب أن يفهم منها على أنها تعبير على مدى الاعتراف بسلطة السلطان وهيبته فقط، فالمراسلات وطلب تحكيم السلطان من قبيلة اعتبرت على رأس قبائل "السيبة" في المغرب[٧٨]، لدليل على اعترافها بشرعية السلطة، وإذا عزمت على تخليص نفسها من سلطة السلطان ومن بطش نوابه، فإنها مع ذلك كانت تحاول أن تحافظ على بعض الارتباط به ولا تقطع شعرة معاوية معه نهائيًا، باعتباره صاحب السلطة العليا، ومصدر البركة، والضامن لوحدة الأمة والحامي لها[٧٩].

للإشارة، فبني مسارة لم تكن تعيش في الفوضى وبلا نظام أو بدون قانون على مستوى تسيير شؤونها الداخلية، بل كانت خاضعة لأحكام الجماعة في معاملاتها، وكانت تقيم على رأسها زعماء وقادة تحقيقا لاستقلالها الذاتي، بواسطة تنظيم مجامع تتولى النظر في قضايا القبيلة، والفصل بين الظالم والمظلوم. فكان المشتكي يقصد المجامع التي كانت تعقد غالبًا في الأسواق تحت الأشجار وكان لهاته المجامع شبه رؤساء يديرونها، أما كيفية حكمها فكانت تتم بعد الاستماع إلى الشاكي والمشتكى به، وبعد ذلك يرفع الرؤساء الجمع ويتشاورون مع القاضي الشرعي ثم يصدرون الحكم... وكانت أحكامها تشمل في الغالب الشؤون الاجتماعية؛ كالسرقة، والقتل، والضرب، وتقويم الأضرار...[٨٠].

أما المخزن، فكان يقدم بعد استعصاء الأمر كما رأينا على العقاب والمزايدة بالحرب، فلم تأت سياسته بنتيجة غير الشر المستطير، فالذي كان ينبغي عمله آنذاك هو استئصال أسباب الداء بقمع القواد المفسدين، والضرب بقوة على الطغاة، والعمل على نشر العدل بين الرعية، بتعيين الحكام الذين ترضاهم القبيلة، ويتمتعون بسجايا حسنة يصلحون البلاد، ويعيدون إليها الأمن والطمأنينة، وأما القمع والحركات المتتالية، فإنها كانت تسبب من الضرر والشرور ما يصعب إصلاحه وتلافيه، ومن الأحقاد والجراح ما لا يمكن تناسيه، غير أن السلاطين وقواد المخزن والأشراف وثوار القبيلة لم يكونوا يحسبون هذا الحساب، ولا يقيمون لهذا الأمر أي اعتبار، ولذلك لا نعجب من تسابق المخزن إلى التأديب والعقاب، مهما كان فيه من إزهاق لأرواح العباد.

بالنسبة للقبيلة، فقد كانت تسارع إلى السطو ونشر الفوضى و"التسيب"، وبخصوص أشراف وزان فبادلوا القبيلة العنف بالعنف ونزلوا إلى مستوى الحضيض، وبدأوا ينشرون الفوضى، بعد أن كانوا مصدر الأمان وضمانة للأمن والاستقرار بالمنطقة[٨١]. ومهما كانت الأسباب التي أوردناها سابقًا، فإن مشكلة المغرب آنذاك وفي الفترات السابقة تمثلت في عدم إنشاء طريقة للحكم، ومؤسسات تضبط العلاقة بين المسؤولين والمواطنين سواء على المستوى المركزي أو المحلي، فشخصانية المسؤول ثم ضعف أو قوة الحاكم هي التي تلعب الدور الإيجابي أو السلبي في مصير الدولة، مما يخلق عدم استقرار مزمن.

خَاتمَةٌ

يظهر بوضوح في ختام هذا العرض، أن سيبة قبيلة بني مسارة على الدولة المغربية أواخر القرن التاسع عشر تمثل فصلًا هامًا في تاريخ منطقة وزان، وتعكس تحولات هائلة أثرت في العلاقة بين القبيلة والسلطة المركزية. كانت هذه الفترة مليئة بالتحديات والضغوط الداخلية والخارجية، مما أدى إلى اندلاع الفوضى والتمرد داخل قبيلة بني مسارة. لقد تأثرت المنطقة بشكل كبير بالظروف السياسية والاقتصادية، وكذلك بالتأثيرات الناجمة عن التحولات الاجتماعية والثقافية، وعواقب الضغوط الأوروبية على الدولة المغربية وكيف أثرت هذه الضغوط على تفاعل السلطة المركزية مع تحولات القبائل؟ من خلال فحص تفاصيل السيبة وأسبابها، ندرك أهمية فهم العوامل التي ساهمت في هذا التحول الكبير في العلاقات الاجتماعية والسياسية. ويبرز الدور المشدد للسلاطين والقادة المحليين في التعامل مع تلك الفترة الحرجة، وضرورة اتخاذ إجراءات فعالة للحد من الفوضى والحفاظ على الاستقرار. كما تعطي هذه الحالة درسًا حول أهمية إقامة نظام فعال للحكم وتحسين العلاقات بين السلطة المركزية والقبائل. وتظهر أيضًا أهمية التواصل والتفاهم المتبادل لحل الخلافات وتحقيق التوازن بين الاستقلال القبلي والاستقرار بالبلاد عمومًا.

الإحالات المرجعية:

(١) جمال الدين محمد بن جلال الدين الخزرجي المصري ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد السابع، دار بيروت للطباعة والنشر ودار صادر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية - ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م، ص: ٣١٥-٣١٦.

(٢) مسعود جبران، **الرائد: معجم لغوي عصري رتبت مفرداته وفقا لحروفها الأولى**، طبعة جديدة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، آذار/ مارس ١٩٩٢، ص: ٤٢٥.

(٣) أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، المجلد الأول، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، عالم الكتب، ص: ١١٤٥.

(4) Robert Montagne. **Les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc**, essai sur la transformation politique des berbères, Paris, 1930, p. 286.

(٥) عبد الأحد السبتي، **التاريخ والذاكرة أوراش في تاريخ المغرب**، الناشر: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص: ١٦١.

(٦) المختار الهراس، **القبيلة والسلطة تطورات البنيات الاجتماعية في شمال المغرب**، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، ص: ١٤٢.

(٧) محمد ياسين الهبطي، **مساهمة في دراسة تاريخ المقاومة المغربية للاستعمار الإسباني" مقاومة مدينة شفشاون نموذجا"** نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص: ١٦.

(٨) سجل الضعيف الرباطي في كتابه "الدولة السعيدة" حديثا دار بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وشيخ الزاوية الوزانية سيدي علي بن أحمد في مسجد الروى بمكناس سنة ١٧٦٣م حيث قال السلطان له:" حل بيني وبين بني مسارة، فإنهم اشتغلوا بقطع الطريق". انظر ـ الضعيف الرباطي، **تاريخ الدولة العلوية السعيدة**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، ص: ٣٥٣.

(٩) عبد السلام البكاري، **الإشارة والبشارة في تاريخ وأعلام بني مسارة**، الطبعة الثانية ٢٠٠٧، ص: ٤٦.

(10) Michaux - Bélaire (E), **villes et tribus du Maroc, rabat et sa région,** tome IV. Le Gharb (les Djebala). Editions Ernest Leroux, paris, 1918, p.34.

(11) Montagne (R), op.cit, p.286.

(١٢) أوجست موليراس، **المغرب المجهول**، الجزء الثاني: اكتشاف جبالة، ترجمة وتقديم د.عز الدين الخطابي، ٢٠٠٣، ص: ٤١٩.

(13) Henrys Poisson de La Martinière et Napoléon La Croix. **Documents pour servir à l'étude du nord**- réunis et rédigé par ordre de Mr Gaules Gambon, gouverneur général de l'Algérie, service des affaires indigènes, pp. 436 – 437. gallica.bnf.fr

(14) Ibid, p.420.

(١٥) جمال عاطف، **إسبانيا وحرب سيدي ورياش ١٨٩٣/ ١٩٩٤م من خلال الوثائق الإسبانية**، منشورات باب الحكمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٩، ص: ١٣.

(١٦) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب ٧، الجزء التاسع، ١٩٩٧، ص: ١٠٩.

(١٧) عبد الرحمان ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية، الجزء الخامس، الطبعة الأولى، الرباط، 1930، ص: ٢٩٠.

(١٨) محمد العربي معريش، **المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول ١٨٧٣ – ١٨٩٤م / ١٢٩٠ – ١٣١١هـ**، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٩٨٩، ص: ٣٩.

(١٩) محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، مطبعة الرباط، الجزء الأول، ١٩٧٣، ص: ١٠.

(٢٠) معريش، م، س، ص: ٤٦.

(٢١) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، ١٩٩٤ ص: ٢٥٨.

(٢٢) محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، الجزء الثاني، ص: ١٨٥.

(٢٣) موليراس، م، س، ص: ٤١١.

(٢٤) رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد الطريس بتاريخ ٥ رمضان عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م. خ، ع، م، ت، الأرشيف التاريخي، س١٣٣ مح٢/١٠٩.

(٢٥) مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية بالمغرب ١٨٨٣-١٨٩٤**، الجزء الثالث، ١٩٨٨، ص: ١١٩٥.

(٢٦) رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بركاش، بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م.خ، ع، ت، م، الأرشيف التاريخي، س٣٩ مح٢/١٥.

(27) H. P. De La Martinière et N. La Croix, op.cit, pp.436 – 437.

(٢٨) ابن زيدان، م، س، ج ٥، ص: ٤٠٣.

(٢٩) المشرفي، **الحلل البهية**، م، س، ص: ١٨٥.

(30) Bélair (E). **Villes et tribus du Maroc, Rabat et sa région**, **Le Gharb (les Djebala)**, tome IV Editions Ernest Leroux, paris, 1918, p.284.

(31) Bélair (E). **Ouezzan**, France-Maroc, (A4. N10), octobre 1920, p.202.

(٣٢) موليراس، م، س، صص: ٤٦٩ـ ٤٧٠.

(٣٣) أكد لنا العديد من الطاعنين في السن أن سبب التوتر الذي كان سائدا بين بني مسارة وبني مزجلدة خاصة، كان سببه في الغالب، التداخل في المراعي ونقط المياه. انظر ـ ابراهيم بل العافية، **الشرفاء الكنونيون أهل الزواقين بقبيلة بني مستارة ـ مساهمة في التاريخ الاجتماعي المغربي ـ مطبعة المعرف الجديدة**، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٧، ص:١٠٣.

(٣٤) خوان باندو، **التاريخ السري لحرب لريف (المغرب المزعج)**، ترجمة سناء الشعيري، منشورات الزمن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ ص: ٢٠.

(٣٥) محمد الناجي، **التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب ق١٦ـ ١٩**، ترجمة عبد الرحيم حزل، الطبعة الأولى ٢٠٠٤، ص: ٨٥.

(٣٦) نفسه، م، س، ص: ٨٨.

(٣٧) الشتا: المطر ـ لرياح: نزلات البرد الشديد كالزكام مثلا. بيت مشهور في العيطة الجبلية.

(٣٨) أبرز الباحث محمد الناجي أن أواخر القرن التاسع عشر شهد المغرب فيه عدة سنوات مجدبة جدا، أهمها ١٨٦٧ـ١٨٦٩، ١٨٧٨، ١٨٨١، ١٨٨٢، ١٨٨٣، ١٨٨٩، ١٨٩١... الناجي، م، س، صص:٨١ـ٨٩.

(٣٩) محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة: رسائل وأطروحات رقم ١٨، ١٩٩٢، ص:٣١٨.

(٤٠) محمد عمراني، " الشرفاء الوزانيون والقبائل المجاورة لمدينة وزان أواخر القرن التاسع عشر"، **ندوة علاقة المدن بالأرياف على الطرف الجنوبي لبلاد جبالة**، لمجموعة البحث المتعددة الاختصاص حول جبالة، تأليف مجموعة من الأساتذة بمساعدة مؤسسة كونراد أديناور، ١٩٩٥، ص: ٣٩.

(٤١) خالد بنصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (١٨٨٦.١٨٥٦)**، الشركة المغربية للنشر ولادة، الدار البيضاء، ص: ١٨٠.

(٤٢) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الأولى، ١٤٠٦/١٩٨٦، ص: ١٠٠.

(٤٣) ابن زيدان، م، س، ج ٣، ط٢، ص:٣٤٥.

(٤٤) زين العابدين العلوي، **المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني الجزء الأول "المغرب في عهد السلاطين مولاي الحسن مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ**، ٢٠٠٨، المطبعة والوراقة الوطنية، ص:٧١.

(٤٥) البكاري عبد السلام، **الوجيز في تاريخ وأعلام مسارة وعلاقة وزان وما والاها من قبائل جبالة، دراسة وثائقية تحليلية**، الطبعة الأولى، نونبر ١٩٩٧، ص: ٦٤.

(٤٦) نفسه.

(٤٧) يرني: نبات عشبي درني، كان يتغذى عليه الناس أيام المجاعات والمحن حيث ارتبط دائما بهذه الآفات. إن البيت الزجلي يعبر بقوة عن المجاعات التي اجتاحت المنطقة في هذه الفترات. ونلاحظ في البيت الأول كيف قام الشاعر بمواساة نفسه من هذه المحن؟ على أن الدنيا فانية لا تبقى لأحد، إلا أنه في الشطر الثاني يبين سببا من أسباب الأزمة، ألا وهو النظام الطبقي والتمييز الاجتماعي الذي جعل القائد رمز السلطة يأكل أشهى الطعام ويعيش حياة رغيدة، بينما الباقي يأكلون النبات الذي تعافه حتى البهائم وهو يرني.

(٤٨) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، صص: ٤٥ـ٤٦.

(٤٩) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٧٠.

(٥٠) يقول البكاري في حق هذا الشخص:" وسرعان ما أصبح مع المولى الحسن الأول مستشارا وخبيرا، له اليد الطولى والكلمة العليا والجاه الحسن، فكان أديبا لبيبا، ومجربا أريبا، وكان يقوم مقام وزير الدولة في المالية، لأنه ينظر في الأموال، والجبايات والمداخل والمخارج.." ـ البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٧٠.

(٥١) نفسه، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٧٠.

(٥٢) يقول البكاري: "ولكن الخبر وصل بما جرى في القبيلة وما عزم عليه رجاله فأوصى (بوقطيبة) الأعوان أن يمنعوا الرسول من الدخول إلى المشوار حتى لا يبلغ رسالة القبيلة وشكايتها إلى السلطان، وظل سيدي محمد الحاج بفاس عند بعض أصدقائه مدة، وفي كل يوم يذهب لتبليغ الشكاية فيمنع من الدخول إلى السلطان، وسبب منعه أن السيد عبد السلام ظن به أنه صاحب الفكرة ثم أن ميزانية

الدولة كانت محتاجة إلى الزيادة لا إلى النقصان". ـ البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٧٠.

(٥٣) نفسه، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤٥.

(٥٤) يقول البكاري عن الطريقة التي أدار بها الشيخ بن محمد القيسي بني مسارة: "... واعتمد في تطبيق أحكامه على الجواسيس الذين سهلوا مهنته الجهنمية في تطبيق الأحكام العرفية التي سنها للردع، واجتذب له بالقرابة تارة وبالعطف والعصبية تارة أخرى فرقة بني قيس التي كان الشيخ يدعي انتماءه إليها، وكانت غايته بالدرجة الأولى هو أن تحميه من هجمات السكان وغضبهم، مما ألب باقي السكان ونفرهم من حكمه". البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤٥.

(٥٥) رسالة من القائم بأعمال مفوضية فرنسا إلى وزير الخارجية الفرنسي السيد دوفريسيني، مؤرخة في ٣١ يوليوز ١٨٨٠. عبد الوهاب بنمنصور، مجلة الوثائق الملكية، العدد الثالث، سنة ١٩٧٦، ص: ١٥٠.

(56) H . P, de la Martinière et N, la Croix, op.cit, p.464.

(57) Idem.

(٥٨) كرد فعل على عدم استقبال مبعوث القبيلة إلى السلطان الحسن الأول، وعدم الاستماع إلى طلب القبيلة، هاجم الناس دار عبد السلام بوقطيبة ونهبوها وخربوها. يقول البكاري في هذا الصدد: "... ومع ذلك أنه كان من الأحسن استقبال الرسول والسماع لشكوى القبيلة وطمأنته ورده ردا حسنا، ومجاملته هي مجاملة القبيلة بأسرها التي ينتمي إليها، ولكن كان ما كان، وبعد أسبوع رجع السيد محمد الحاج الدالحي غاضبا إلى بني مسارة...هجمت القبيلة على القصر المذكور(قصر بوقطيبة) وهدمته من بعض الجوانب وأخذت ما فيه من الأمتعة، ومنذ ذلك الوقت والقصر خال إلى الآن". ـ البكاري، الوجيز، م، س، ص: ٧٠.

(٥٩) عمراني، م، س، ص:٣٥.

(٦٠) رسالة من السلطان المولى عبد العزيز إلى النائب الحاج محمد الطريس بتاريخ ٤ صفر الخير عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، خ. ع. م، ت، الأرشيف التاريخي، س ٢٣٣٠، مح ١٤/١٧.

(٦١) تؤكد العديد من الرسائل المخزنية التي بين أيدينا، كيف ساهم احتماء الوزانيين بالحماية القنصلية في تطاولهم على المخزن وعلى عماله وعلى نشر "السيبة" في المنطقة وباقي مناطق الشمال، ولم يكن المخزن يحد من تسلطهم إلا بمراسلة السفير الفرنسي ومطالبته بالتدخل لإيقاف الوزانيين عند حدهم وحل المشاكل المطروحة. جاء في رسالة من السلطان المولى عبد العزيز إلى محمد العربي الطريس:" وبعد فقد أخبر خديمنا القائد عبد الكريم ولد أب محمد أنه لما امر جماعة بني مرعاز من الزراهنة بتوجيه خاص عسكرهم الذي هو اثنان وثلاثون نفرا امتنعوا بتعرض أولاد الحاج عبد السلام الوزاني عليهم ومنعهم لهم من ذلك وعليه فنأمرك بالكلام مع باشدور الفرنصيص بكفهم عن ذلك." خ. ع. م، ت. الأرشيف التاريخي، س ٢٣٤٠ مح١٧ /٢٤، بتاريخ ٧ ربيع الأول عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م.

(٦٢) رسالة من السلطان الحسن الأول إلى وزيره محمد بركاش بتاريخ ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م، خ. ع. م، ت. الأرشيف التاريخي، سجل ٣٩، مح. ١٥/٢.

(٦٣) لما هم مؤسس زاوية وزان مولاي عبد الله الشريف الاستقرار بوزان، عارضته بني مسارة وطلبت منه الرحيل، لكنه عقد معهم اتفاق، يضمن فيه ألا تصيبهم دعواه ودعوى أبنائه من بعده، مقابل جمع الحطب للوزانيين من جبل بوهلال، وبقي هذا الاتفاق ساريا والود بينهم جاريا إلى أواخر القرن التاسع عشر، حيث فسدت العلاقة بين الجانبين، وكان المسؤول كما يظهر من الرسائل المخزنية، هم الوزانيون الذين اشتغلوا بالفتن والصراع، الأمر الذي أفقدهم الاحترام، وأدى إلى انتشار الفوضى في المنطقة.

(٦٤) عمراني، م، س، ص:٣٩.

(٦٥) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٦٤.

(٦٦) نفسه.

(٦٧) ابن زيدان، م، س، ج٥، ط٢، ١٩٩٠، ص: ٤٠٣.

(٦٨) نذكر في هذا السياق ما وقع للقائد أبو الشتاء بن الهاشمي الذي عينه المولى عبد الحفيظ ١٩١٢ قائدا على القبيلة، لكن المساريين رفضوه وهموا بقتله واتهموه بالعمالة للاستعمار، ورغم عدم ثبوت التهمة لم تقم الفرقة التي ينتمي إليها حجر بني عيش بحمايته، ولم تتحرك فيها الحمية والعصبية التي كانت تشتعل لأتفه الأسباب كقتل راعي أو ماشية، لكن الأمر هذه المرة مختلف، فالمطالب به قائد مخزني يمارس سلطة المخزن التي لا يمكن الاطمئنان إليها.

(٦٩) عمراني، م، س، ص: ٣٩.

(٧٠) جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، الشركة المغربية المتحدة، الرباط، ص:١٠٧.

(٧١) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٧٠.

(٧٢) نحن هنا لا نبرر للقبيلة أفعالها، ولا يمكن تحميلها لوحدها المسؤولية كما كان يفعل المخزن، وحتى الأجانب في وصفهم لأفعال القبيلة التي كانت من الوجهة الشرعية أو القانونية غير مقبولة وغير مشروعة، سيكون الأمر كذلك لو كان الناس يعيشون في دولة يسودها القانون ومستقرة وعادلة. لكن الأمر كان عكس ذلك، فالفوضى في كل مكان، والفساد مستشري في دواليب الدولة، قادة مخزنيون فاسدون.... فطبيعي والحالة هاته أن تعبث القبيلة بالقانون وأن تنشر الفوضى، خاصة وأنها قبيلة قوية، وهناك من يبادلها العنف بالعنف؛ كشرفاء وزان، والقبائل المجاورة...

(٧٣) بعد طرد القبيلة للقائد محمد القيسي القطاري عام ١٩٧٣، عين السلطان بدله ابنه محمد بن محمد القيسي القطاري، وكان أكثر بطشا وفسادا من أبيه. البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤٨.

(٧٤) رسم عدلي يتحدث عن تدخل أحد حكام المجامع لتقويم الأضرار التي خلفها اعتداء على ممتلكات أحد المساريين.

(75) Germain Ayache, **Les Origines de La guerre du Rif**, Smer (Rabat) 1981, publication de la Sorbonne, p.54.

(٧٦) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٧٠.

(77) Ayache, op.cit, p.54.

(٧٨) عمراني، م، س، ص: ٣٧.

(٧٩) من مظاهر احترام قبيلة بني مسارة لمؤسسة السلطان، أنها كانت تسارع إلى تقديم بيعتها للسلطان الجديد بمجرد جلوسه على العرش كبيعة السلطان الحسن الأول. ـ البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٢٢٦ـ٢٢٧.

(٨٠) أحمد المسياح، **قبيلة بني مسارة، علاقتها بالمخزن ومقاومتها للاحتلال الفرنسي خلال القرنين ١٩ و ٢٠**، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، إشراف الأستاذ علال الخديمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية ١٩٩١ـ١٩٩٢م، ص: ١٨.

(٨١) عمراني، م، س، ص: ٣٩.